الفصل السادس والعشرون

إسلام شعوب السودان واستعرابهم

لم تكن الجماعات السوداء القاطنة في جنوب السودان أو غربه في أي يوم من الأيام بمعزل عن الأحداث في شماله منذ فجر تاريخ ممالك النوبة وعلاقاتها بالحضارة الفرعونية . فقد كانت هذه الجماعات أو القبائل السوداء على اتصال دائم بالشمال إما عن طريق التجارة أو الاسترقاق للعمل في جيوش وادى النيل وخاصة للالتحاق بالقوات الفرعونية . وكانت هناك تجارة رائجة بين مصر وبلاد النوبة وصولا إلي جنوب السودان للحصول على السلع التى يرغب فيها العالم القديم مثل جلود الحيوانات الوحشية ، والحيوانات نفسها ، وجلود الأبقار وريش النعام والأبنوس والعاج وغيرها . فالتجارة كانت حلقة اتصال قوية جعلت الفراعنة يرسلون بعثاتهم التجارية أو الاستكشافية إلي جنوب السودان من حين إلي آخر.

ولعل من أهم السلع التى كان يتجر فيها العالم القديم قاطبة الرقيق إذ أنه كان سلعة رائجة في سائر المدنيات القديمة سواء تلك التى قامت على الأنهار في الشرق الأدنى أو تلك التى قامت في كل من اليونان والإمبراطورية الرومانية .

وكان كل من السود والنوبة قد انتشروا خارج الحدود السودانية ، وأصبح وجودهم مألوفا في أراضي المدنيات القديمة .

فلما دخل الإسلام مصر ، وذهب عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مهمته التي أرسله إليها عمرو بن العاص لقتال النوبة الذين كانوا يهددون الحدود الجنوبية المصرية فإنه بعد معركته مع النوبة توصل إلي هدنة مع ملك النوبة كان من بين شروطها أن يرسل الملك النوبي لوالي مصر في هدية البقط ثلاثمائة وستين رأسا من أوسط رقيقهم ، وأضاف النوبيون أربعين آخرين هدية للوالي على اختلاف في الرويات التى أوردت هذا الخبر والعدد والذى في جملته لا يزيد عن أربعمائة رأس . وهذا البند الذى تضمنته الاتفاقية يظهر أن هذه الممارسات كانت أمرا مألوفا . وكان النوبة يشترون هذا الرقيق أحيانا ممن يقع في الأسر حين تقاتل القبائل والجماعات الجنوبية . بعضها بعضا . فكان هذا العدد يرسل أحيانا إلى والي مصر ، وفي كثير من الأحيان يمتنع النوبة عن دفع البقط ، فيؤدى ذلك أحيانا إلي قتال بين والي مصر ومتملك النوبة ، وأحيانا كثيرة يغض الولاة الطرف عن هذه الهدية ولا يطالبون بها إلا إذا حدث هجوم من النوبة على أسوان أو عيذاب ، فترسل التجديدات العسكرية لردع النوبة عن مثل ذلك التعدي .

كانت أرض الكنانة مصنعاضخما لتعريب العناصر الإفريقية ونشر الإسلام بينهم . وكان السودان هو البحيرة التى تنبع منها أعداد كبيرة من الأفارقة من شتى أنحاء القارة للرحيل إلي مصر ، والاستيطان بها ، والعمل في جيوش الدولة العربية الإسلامية . وكان أبناء أعالي وادي النيل يجدون المناصب العسكرية مفتوحة على مصراعيها أمامهم في مصر ، وكانوا يجدون حظا وافرا في تلك المناصب . وكان بعض هذه العناصر الإفريقية يذهب إلي مصر وهم راضون عن مستقبلهم ، وبعضهم يمضون إلي هناك كرها ، ثم لا يلبثون أن يجدوا في مصر ، وفي ظل الدولة العربية هناك من عباسية أو

فاطمية الحرية المكفولة للجميع ، فيعتنقون الدين الإسلامي الحنيف ، ويتولون الوظائف التى تناسبهم في الجش ، وبعد أن كانوا من الموالي الذين تملكهم الدولة ينقلبون إلي جنود يدافعون عنها . ويحسن إسلام هؤلاء ، وقد يعملون على جلب المزيد من أقربائهم إلي مصر ليجدوا الرزق الحلال ، والمناصب المناسبة ، والحرية التامة و العيش في سعادة بالطريقة التى تحلو لهم ، والتى يرضاها لهم الوالي المسلم . ولهذا فإنهم وإن لم يرتفعوا إلي مستوى مماليك الأتراك الذين خلفوهم في الجندية ، والذين استولوا على الملك بعد انتهاء سلطان الأيوبيين إلا أنهم كانوا لفترة طويلة قوام الدفاع عن السلطة العربية والإسلامية في مصر ، كما أنهم في كثير من الأحيان كانوا يقفون في جبهة واحدة مع العرب ضد الأتراك ومن كان مثلهم .

وقد فتحت مصر والعرب الذين كانوا في مصر أبواب علوم الحياة بأنواعها من سياسة ، وعلوم ، وفقه ، وغيرها من الإنجازات الإنسانية ، فكانت خير بوتقة ، وجهاز صياغة لتوسيع رقعة الإسلام في وادى النيل سواء في شماله أو في أعماقة .

في العقود الأولى من العصر الإسلامي العربي في مصر ، لم تكن هناك حاجة إلي أن يشترك هؤلاء السود في الجيش الإسلامي المرابط في مصر لان الجهاد المفروض على المسلمين ، وكانوا من العرب ، قد جعلهم هم الفئة العسكرية التى عليها أن تصد أى عدوان رومي مسيحي ، أو نوبي مسيحي. ويلاحظ أن المادة المتعلقة بالعبيد لم تطبق في المعاهدة التى أبرمت بين البجة والمسلمين ، وذلك لأن البجة قبلوا الإسلام منذ أول وصوله إلي جنوبي مصر ، وكما قال ابن حوقل فإنهم اعتنقوه ، وكان إسلامهم ضعيفا لضعف التبشير في أراضيهم في أيام عبد ا لله بن سعد بن أبي سرح .

أما النوبة فقد استمروا في اعتناقهم للدين المسيحي ولذلك كان عليهم أن يدفعوا الجزية ، ولكن لرقة حالهم ، وقوة بأسهم توصل معهم المسلمون إلي عقد معاهدة البقط التى كما يرى كانت عبارة عن هدايا متبادلة تظهر رغبة الجانبين في العيش بسلام .

و أول مرة يظهر فيها السود بمظهر الجنود الحربيين المدججين بالسلاح والذين لهم هيبة عسكرية كان في أيام الوالي أحمد بن طولون الذي وصل إلي مصر ليتولى إمارتها في يوم الأربعاء السابع من رمضان سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م . وكان على خراج مصر آنذاك أحمد بن محمد بن المدبِّر الذى يصفه المقريزي[٦] " بأنه كان من دهاة الناس ، وشياطين الكتاب " بسبب أنواع الضرائب التى أدخلها على الناس ، والتى أجبرت العرب على محاولة الهروب من يديه ولو بالهجرة إلي ما وراء الصعيد نحو أراضي النوبة والبجة . وعند ما استقر المقام بابن طولون أهدى إليه ابن المدبر هدايا قيمتها عشرة الآف دينار . فلما خرج ابن المدبر من عنده رأى ابن طولون أن مع أحمد كوكبة من الغلمان عددها مائة كانوا حراسه وعدته ، وكان يبدو عليهم حسن النظام وقوة البأس . فردَّ ابن طولون هدية ابن المدبر وطلب منه أن يهديه أولئك الغلمان لأنه أحوج إليهم منه بوصفه الوالى على مصر . ورأى ابن طولون بعد ذلك أنه في حاجة إلي تجنيد الرجال وتقوية مركزه بجيش قوي ، فما كان منه إلا أن " اشترى العبيد من الروم والسودان وعمل سائر ما يحتاج إليه "[٧]. واستكثر أحمد بن طولون من شراء العبيد وجلب الرجال حتى ضاقت داره فاضطر إلي تخطيط موضع لهم عرف بأنه قطيعة النوبة .

---

[٦] جزء (١) ، ص ٣١٤ – طبع بيروت .

[٧] المقريزى ج ١ ص ٣١٥ – بيروت.

وقد بلغ عدد غلمان ابن طولون من الأتراك أربعة وعشرين ألف غلام تركي ، ومن السود اربعين ألف أسود[٨]. وكان الجند السودانيون يمثلون منظرا رائعا في الاحتفالات العسكرية في أيام الطولونيين ، ويقول المقريزى بأن خمارويه بن أحمد بن طولون كان أيضا معجبا بهؤلاء الجند ، وكان يسير في مواكبه " ألف أسود لهم درق من حديد محكم الصنعة وعليهم أقبية سود ، وعمائم سود ، فيخالهم الناظر إليهم بحرا أسود يسير ، لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ، ويصير لبريق دروعهم ، وحلي سيوفهم ، والبيض التى تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم زيّ بهيج "[٩].

وكما كان الطولونيون معجبين بالجندي السوداني ، كذلك كان الجنود السودان يخلصون لهم كل الإخلاص ، وكانوا معهم في حروبهم ضد ولاة العباسيين في الشام وغيره . ولما دالت دولة الطولونيين بعد أن حكمت سبعا وثلاثين سنة ، " وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنسانا ، وأخرج قوادهم .. وخلت منهم الديار ، وذبحوا .. كما تذبح الشياه ، وقتل من السودان سكان القطائع ، رثاهم الشعراء وبكوا على أيامهم ."

وكان عدد الجنود السودان قد اصبح عظيما حتى إن الناس في مصر شكوا إلي أحمد بن طولون من أن جامعه أصبح لا يتسع للمصلين بسبب كثرة الجنود السودانيين مما جعل ابن طولون يبنى جامعا آخر أكثر اتساعا من ذلك ، وكان يحث الناس على الصلاة فيه هم وأبناؤهم . وكان ابن طولون وأبناؤه يرون في هؤلاء الجند السودان إخلاصا لهم وتفاني في خدمتهم والائتمار بأوامرهم حتى زوال سلطة الطولونيين من مصر في آخر الأمر .

---

[٨] المقريزى ج ١ ص ٩٤ – بيروت .

[٩] المقريزى ج ١ ص ٣١٨ – بيروت .

لم يأفل نجم هؤلاء الجنود السود بعد زوال ملك الأسرة الطولونية إذ ارتفع شأنهم إلي حدٍّ بعيد في ولاية كافور الإخشيدى على مصر . وكان كافور قد جُلب من منطقة اللاب من الأراضي السودانية وهو في حوالي العشر سنوات من عمره سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وما أن امتلكه الإخشيديون كما سنرى ، وأصبح واليا على مصر نيابة عن الإخشيد ، حتى أخذ يعزز موقفه في مصر بتجنيد الأفراد السود . وكان كافور في حروب مستمرة بسبب محاولته الدفاع عن ولايته على الشام من جهة ، ولصد أي عدوان أو غزوات نوبية من الجنوب . وبالفعل فقد أعد جنده السود وقام بغزو النوبة . وكما يذكر كل من النويرى وابن الفرات فإن غزوه للنوبة كان قد تم بواسطة الجنود السود إذ كان أكثر جنده في تلك الغزوة السودان وقد قال أحد الشعراء في ذلك :

ولما غزا كافور دنقلة غـــدا بجيش لطول الأرض من مثله عرض

غزا الأسود السودان في رونق الضحى فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض

بعد أن انتهت ولاية كافور على مصر بوفاته سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧م . دخلت جيوش الفاطميين مصر ، وأقاموا الخلافة الفاطمية فيها . وبدأ عهدهم بتفاهم وثيق بيهم وبين أمراء قبيلة ربيعة الذين كانت لهم مكانة كبيرة في الصعيد كما أنهم كانوا على علاقة حميمة مع كل من النوبة والبجة ، وقد ساعدوا الفاطميين على القبض على الثائر الأموي أبي ركوة . وبسبب هذه المساعدة منح الخليفة الفاطمي لقب كنز الدولة لذلك الأمير الربعي ، وثوثقت العلاقة بين الفاطميين وأهالي جنوب الوادي من عرب وسودان وبجة ونوبة .

أصبحت هذه العلاقة أوثق ما يكون عند ما أصبح المستنصر با لله خليفة الدولة الفاطمية سنة ٤٢٧ – ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٦ – ١٠٩٤ م . وكانت أم المستنصر جارية سوداء جلبت من جنوبي بلاد النوبة ، كما كان ابنها الخليفة المستنصر اسود الجلدة . وكانت أم المستنصر تثق منتهى الثقة في الجنود السود وهي في القاهرة وأمام حشود كبيرة من مختلف الجنسيات ممن كانوا يحسدونها وابنها على ما وهبهم ا لله من ملك . لذلك كان عليها أن تحيط نفسها وولدها بجنود تثق فيهم . ولهذا السبب فقد قامت بجلب أعداد كبيرة من السودان عن طريق مملكة النوبة حتى أصبح لديها ما يزيد عن خمسين ألف جندي أسود .

وبالرغم من كثرة هذا العدد الذى ذكره المقريزي إلا أن هؤلاء السود واجهوا صعوبات كثيرة وكبيرة في القاهرة بسبب وزراء الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يرون فيهم حجر عثرة أمام طموحاتهم التى كانت تدفعهم لكي يتسلموا السلطة من الخلفاء الفاطميين . وقد كان من بين هؤلاء الوزراء الذين أوقعوا بالجند السودان ناصر بن حمدان الذي كان له نفوذ قوي أيام الخليفة المستنصر . وقد ضرب جموعهم ليس فى القاهرة فحسب ، ولكن أيضا في الصعيد ، ودوخ كتائبهم ، كما ضرب الكنوز والنوبة . ومع أن المصادر العربية تذكر أن عدد هؤلاء الجند السودان كان قد بلغ خمسين ألفا إلا أنه يبدو أن هذا العدد فيه شيء من المبالغة بسبب الهزائم التى لحقت بهم من قبل جنود الأتراك الذين كانوا مع ناصر بن حمدان أو غيره من الوزراء .

وفي هذا يقول المقريزي بأن الجنود الأتراك الغز نقمواعلى جنود السودان لأن أم الخليفة المستنصر كانت تميل إليهم ، وتقف إلى جانبهم ،

وتؤيدهم بالمال . فحدث أن قتل الجند السود أحد الأتراك في خلاف بينهما ، فتأزم الموقف ، وأراد كل منهما أن يفتك بالآخر ، ولكن تم التوصل إلى صلح مؤقت بينهما ، ولكن كانت الصدور مملوءة بالإحقاد . ويمضي المقريزى قائلا : " فتجمع الأتراك لمحاربة العبيد ، وكانت بينهما حروب شديدة في ناحية كوم شريك ، فقتل فيها عدة من العبيد ، وانهزم من بقي منهم ، فشق ذلك على أم المستنصر ، فإنها كانت السبب في كثرة العبيد السود بمصر ، وذلك أنها كانت جارية سوداء ، فأحبت الاستكثار من جنسها ، واشترتهم من كل مكان ، وعرفت رغبتها في هذا الجنس ... حتى يقال إنه صار في مصر إذ ذاك زيادة على خمسين ألف عبد أسود . فلما كانت وقعة كوم شريك أمدت العبيد بالأموال والسلاح سرا ."

وكانت أم المستنصر قد تحكمت في الدولة ، وحقدت على الأتراك .. فكره الأتراك ذلك . هكذا استطاع الأتراك الغز أن يضعفوا من قوة جند السودان الذين كانوا شيعة للفاطميين في عهودهم المختلفة . ووجود السود بهذا العدد الكبير في مصر إنما هو شكل قوي من أشكال الوجود السوداني الإفريقي في وادي النيل . ويبدو أن هذا العدد من العبيد لم يكن نتيجة لهجوم على مناطق القبائل السوداء ، ولكن ربما كان عن اتفاق تام بين أهل هؤلاء الصبية وبين سماسرة معترف بهم أرسلوا من قبل السيدة أم المستنصر . وقد قام هؤلاء الجند وهم صبية يتعلمون اللغة العربية واعتناق الدين الإسلامي والمذهب الشيعي في مصر حيث كانوا يعيشون كإحدى الطوائف المرموقة هناك .

ويبدو أن هؤلاء الجند قد أقاموا علاقات أخوية بينهم وبين المصريين ، وكانوا هم والمصريون من جهة في عداء مستمر مع الجنود

الأتراك الغز الذين كانوا في مصر منذ سنوات طويلة . ويظهر هذا التحالف بصورة واضحة حين نشبت ما أسماها المقريزي بواقعة العبيد إذ أنه لما تولى صلاح الدين الأيوبى وزارة الخليفة العاضد با لله الفاطمي في مصر والشام ، اراد صلاح الدين أن يستولي على السلطة ويجعل من الخليفة العاضد خليفة بدون سلطات . وكان مع العاضد أحد مستشاريه السود وهو مؤتمن الخلافة جوهر الذى كان يعمل مع العاضد على إضعاف سلطان صلاح الدين على الخلافة . ونظرا لما نشأ من تنافس على السلطة بين الوزير والخليفة فقد كان كل منهما يتربص الدوائر للآخر . فلما حدث أن بدأ الصليبيون في غزو أراضي الخلافة الفاطمية في الشام ومصر ، قام جوهر بالاتصال بهم عن طريق إرسال رسالة مع أحد رجاله ليتحالف الجانبان ضد صلا الدين . بيد أن صلاح الدين اكتشف المؤامره ورأى أن يتخلص من قوة العاضد وجوهر وتجريدهما من قوتهم العسكرية التى كانت تتمثل في عشرات الألوف من جنود السودان الذين كانوا تحت إمرة العاضد . وهكذا نشب القتال بين جنود صلاح الدين الذين كانوا من الأتراك والأكراد وبين جوهر والعاضد . وكانت المعارك التى اندلعت حامية الوطيس ، وكما يقول المقريزي فإن هجوم السودان ومن معهم من طوائف مصرية وأرمنية كان عظيم الخطب على صلاح الدين " واشتد الأمر وعظم الخطب حتى لم يبق إلا هزيمة صلاح الدين وأصحابه . فعندئذ أمر تورانشاه بالحملة على السودان ، فقتل أحد مقدميهم ، فانكف بأسهم قليلا ، وعظمت حملة الغز عليهم ، فانكسروا إلي باب الذهب ، ... وقتل حينئذ عدة من الأمراء المصريين وكثير ممن عداهم . وكان العاضد في هذه الواقعة يشرف من المنظرة . فلما رأى أهل القصر كسرة السودان وعساكر مصر ، رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب

والحجارة حتى أنكوا فيهم . " وعندها هدد صلاح الدين العاضد بأنه سيستعمل النفط في إحراق المنظرة ومن فيها ، فخاف العاضد مغبة ذلك ، وأمر وزيره الأسود الآخر واسمه نعيم الخلافة الذى حث صلاح الدين ورجاله على قتل الجنود السود قائلا بصوت عال " دونكم والعبيد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم " .

وبانطلاق هذه الصحية من أحد الزعماء السود ضد الجنود السود ضعفت عزيمة هؤلاء ، وأصيبوا بالخذلان ووجدوا أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه فلا هم مع العاضد الخليفة ولا مع وزيره صلاح الدين ، وكانوا كبش الفداء . فخارت قوتهم ، وفتر حماسهم ، وأصبحوا لقمة سائغة للجنود الأتراك والوزير صلاح الدين الأيوبي . وكما جاء في المصادر فقد كان العاضد وأتباعه يريدون أن يضعوا صلاح الدين وقواته بين المطرقة والسندان بحيث يهاجمه الصليبيون من الشمال حتى إذا خرج إليهم ، ثار عليه الفاطميون ومن والاهم من الجنوب فيطبقون عليه ويهون أمره ثم يدخلون في اتفاق مع الصليبيين . ولكن الخطة فشلت ، واضمحلت قوة الخليفة العاضد إلي حد كبير . وكانت هذه الموقعة بداية لتلاشى الدولة الفاطمية التى كان سلطانها يمتد على مصر والشام والحجاز بما في ذلك أرض الحرمين الشريفين واليمن . وكان على صلاح الدين أن يعمل جاهدا ليرث تلك الخلافة التي آلت إلي السقوط لولا تدخل نور الدين وعمه شيركوه وأخيرا شخصه ومن معه من إخوان وأمراء يتبعونه .

بعد انتهاء وقعة السودان وهزيمتهم سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م قام شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين بغزو النوبة على أساس أن تكون ملجأ للأيوبيين بالقرب من مصر إن حاول نور الدين زنكى أن يستولي على

مصر منهم . فكان أن خرج بجنوده الأتراك إلي النوبة الذين حاربوه بمن معهم من جنود السودان الذين كانوا قد لجأوا إلي الصعيد وأراضي النوبة ولكنه استطاع أن يتغلب عليهم واستولى على بلادهم حتى مدينة أبريم . ولكنه رأى أن تلك الأماكن لا تصلح لهم إذا ما قيست بمصر أو الشام أو غيرها من الأراضي الإسلامية ، ولكن مع ذلك بقيت تلك الرقعة من الأرض النوبية بمن فيها من أجناس سواء نوبية أو سودانية أو عربية تحت سلطان صلاح الدين الأيوبى .

كان الجنود السودان يشكلون تهديدا مباشرا لصلاح الدين ونواياه المستترة التى كانت تهدف إلي الاستيلاء على كل أملاك الفاطميين . وكان في نفس الوقت يخشى أن يقدم نور الدين زنكى الذى كان صاحب الشام ، وهو الذى أرسلهم لمصر ، فيقصدهم ويلحق بهم هناك . ولما كان خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين شديدا في أن يدخل مصر وينتزعها منهم أحبوا أن يكون لهم مأوى يلجأون إليه . فوقع اختيارهم على مملكة النوبة ، وخرج إليها توران شاه أخو صلاح الدين الأكبر حتى وصل إبريم فوجدها ليست ببلدة ذات خراج . غير أن الفقيه عمارة اليمنى[١٠] الذى كان من جلساء نور الدين توران شاه ومن مداحه حسّن إليه اليمن ، وأغراه بما فيها من أموال كثيرة وذلك في سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م ، فقصدها توران شاه وضمها إلي أملاك أخيه الأصغر صلاح الدين الأيوبى .

وفي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م تتابعت الأحداث المثيرة في مصر ، ومات الخليفة العاضد با لله ، وأراد صلاح الدين الانفراد بالسلطة ، بينما أراد أعوان الخليفة الفاطمي أن يرشحوا للخلافة رجلا من أولاده وأن يقضوا

---

[١٠] مسعد عن المقريزى : السلوك مسعد ص ٣٢٦

على صلاح الدين . وتآمر عدد من أولئك الرجال منهم القاضى الفضل ضياء الدين نصر الله ، والفقيه عمارة[١١] بن على اليماني . وكانوا يعتمدون على جنود السودان في القضاء على صلاح الدين ورجاله . ولكن ما لبث أن وشى بهم ابن نجا وأخبر بذلك السلطان صلاح الدين ، وطلب منه أن يعطيه أملاك داعي الدعاة الذي كان من بين المتآمرين . فشُنق هؤلاء المتآمرون في الثاني من شهر رمضان كما شنق بعضهم في شوال ومنهم " جماعة من الأجناد والعبيد والحاشية وبعض أمراء صلاح الدين . وقتل عدد كبير ممن كان مماثا وتابعا للفاطميين ، ونودى أن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلي أقصى بلاد الصعيد " .[١٢].. وقبض على كثير من السودان ، وكووا بالنار في وجوههم وصدورهم .

وفي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م تغير قلب كنز الدولة والي أسوان والعرب والسودان على دولة صلاح الدين الأيوبي حين أقطع صلاح الدين وأخوه أراضي الصعيد لأبي الهيجاء السمين وأخيه وبقية أمراء الأتراك والأكراد . ولهذا فقد رأى كنز الدولة ومن معه من أتباع أن يسير إلي القاهرة لإعادة الدولة الفاطمية التى كانت تحفظ لكل هذه الفئات المنضوية تحتها حقها في شئون البلاد .

وكان واضحا لدى كل الفئات القاطنة في الديار المصرية أنه لم يعد لأي من النوبة أو السود أو المصريين أو الأرمن أو العرب أى شأن في الدولة الأيوبية لأن صلاح الدين كان يعتمد اعتمادا كاملا على الأكراد والأتراك ، ومن معه من أمرائهم . ولذلك كان يريد أن يرضيهم بتلك الإقطاعيات التي

---

[١١] نفس المصدر

[١٢] نفس المصدر .

كان يمنحها لهم . وهذا ما أثار عليه نقمة هذه الفئات غير التركية ، كما أنها حرمتهم من أن يتولوا أي مناصب إدارية أو عاليـة في دولـة صـلاح الديـن . ولذلك فقد قل شأنهم بعد ذلك حتى ورث المماليك الملك من أبنـاء صـلاح الدين عنـد ما قـامت دولـة المـماليك مكـانهم واندثـرت أيـامهم ، ووولـت مملكتهم .

وكان خروج شمس الدولة توران شاه إلي أرض النوبة في عـام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م . ولما تم له فتح النوبة أقطـع تلـك الأراضـي حتـى إبريـم إلي أحد أمرائه الأتراك مما أثار نفوس العرب والنوبة والسود الذيـن شـعروا بأنـه لن يكون لهم نفوذ في هذه الدولة الجديدة التي يقيمها صـلاح الديـن وأخـوه ومن معهما من أتراك .

بعد طرد السود من أغلب الديار المصريـة ، وخاصـة القـاهرة ، لجـأ أكثرهم إلي الصعيد بعيـدا عـن أيـدى صـلاح الديـن وأخيـه شمـس الدولـة ، واجتمعوا حول الأمير العربي كـنز الدولـة في الصعيـد ، كمـا اجتمـع معهـم بعض العرب الذين لم يجدوا حظا طيبا مـع صـلاح الديـن الـذي كـان يعتمـد فقط على جنوده الأتراك . ولم يكن عدد هؤلاء الجنود أكـثر مـن اثـني عشـر الفا ولكنهم كانوا يمتازون بقوة الشكيمة ، وصلابة العـود ، والاسـتماتة مـع قائدهم البطل في القتال . وشعر شمس الدولة بأن كنز الدولة قد أخذ يشـكل خطورة على الدولة الأيوبية في الصعيد ، ولذلك فقد توجه إليه بجيش قوي ، واستطاع في آخر الأمر القضاء عليه وعلى من معه من مؤيدين عرب وسـود وذلك في سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

لم تكن فلـول الجنـود السـود راضيـة عمـا أصابهـا في معركتهـم مـع صلاح الدين وأخيه في القاهرة ، أو ما أصابهم بعد ذلك حين تحالفوا مع كنز

الدولة سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م ولذلك فإنهم أخذوا يجمعون الجموع في الصعيد حتى إذا وثقوا في قوتهم ساروا من الصعيد إلى مصر " في مائة ألف أسود " مع مقدمهم وزعيمهم الذى لم تذكر المصادر اسمه . وكان سبب مسيرهم إلي مصر أنهم كانوا يريدون أن يعيدوا الدولة المصرية الفاطمية وذلك سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م . " فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر ، وأبو الهيجاء الهكاري ، وعز الدين موسك بمن معهم من عساكر والتقوا مع السودان ، فكانت بينهم وقعة هائلة قتل كبير السودان المذكور ومن معه ." قال الشيخ شمس الدين يوسف في مرآة الزمان " إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفا ، وعادوا إلي القاهرة ".

قد تكون في هذه الأرقام بعض المبالغة ، ولكن ما يهم هو أن هؤلاء الجنود السود كانوا كثيري العدد ، وأنهم كانوا قوة عسكرية اعتمد عليها الخلفاء الفاطميون في مواجهة كافة الاعتداءات الخارجية والداخلية أيضا . ولعل من المفيد أن نذكر أن ابن خلدون يروى أن عدد جنود السودان كان حوالي خمسة آلاف عند ما دخلوا في المعركة مع صلاح الدين وأخيه نور الدين توران شاه في القاهرة وحول قصر الخليفة العاضد بالله سنة ٥٦٨ هـ .

لم تكن هذه الأحداث آخر ما قام به الجنود السودان في مصر من ثورات ومفاجآت ، بل إنهم ظلوا محتفظين بذكريات تاريخية عن علاقتهم بالفاطميين . وحتى بعد زوال دولة صلاح الدين الأيوبى ، واستيلاء المماليك على دولتهم نجد أنه حدث في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م " أن ثار جماعة منهم ومن الركبدارية[١٣] والغلمان وأخذوا يطوفون في شوارع القاهرة وهم

[١٣] الركبدارية هم الذين يحملون السروج (عن مسعد) .

ينادون (يا آل علي) ، وفتحوا دكاكين السيوفيين ... وأخذوا ما فيها من السلاح ، واقتحموا اصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيول . وكان الذى حملهم على ذلك رجل يعرف بالكوراني أظهر الزهد وحمل بيده مسبحة ، وسكن قمة الجبل ، وتردد إليه الغلمان فحدثهم في القيام على أهل الدولة ، وأقطعهم الإقطاعات ، وكتب لهم بها رقاعا . فلما ثاروا في الليل ركب العسكر ، وأحاطوا بهم وربطوهم ، فأصبحوا مصلبين .. وسكنت الثائرة . "[١٤]

ولعل في هذه الحركة التي ثارت بعد مضي ستة وثمانين عاما ما يدل على عدم الرضا الذى كان متفشيا في قلوب الرعية بمصر . كما أنها تظهر امتصاص مصر لهذه الأعداد من أبناء القبائل السوداء الذين كانوا يجلبون من أوطانهم جنوبي مملكة النوبة .

وربما كانت هذه الثورة آخر الثورات التي اشترك فيها السودان في مصر لأن وجودهم كجنود في مصر كان قد انتهى منذ أن تولى صلاح الدين سلطان مصر ولم يعد لهم وجود بين عسكر المسلمين حتى استيلاء محمد علي باشا على السودان في عام ١٨٢١م .

ولم يكن تأثير السود القادمين من جنوبي السودان أو من مملكة النوبة أو غيرها قاصرا على الجندية والنواحي العسكرية في مصر ، بل كانت هناك شخصيات لها أثرها على الحياة الفكرية الإسلامية والثقافية في مصر بل وفي العالم أيضا . ولعل أولى تلك الشخصيات التى عبرت الحدود السودانية و واصلت سيرها في ربوع مصر وما بعدها هي شخصية لقمان الحكيم .

---

[١٤] مسعد ص ٣٢٩ .

ولقمان الحكيم شخصية فذه جاء ذكرها في القرآن الكريم وظهرت مآثره هناك ، وعرفت حكمته مما قصه علينا كتاب الله الكريم .. وجاء في المصادر العربية أن لقمان قد كان من أبناء النوبة ، واختلف في أمر ولادته هل كانت في النوبة أم في فلسطين ، ولكن الرأي الغالب يذكر بأنه ولد في المريس في مدينة أدواء ، وإليها ينسب لقمان . وربما كانت هذه المدينة " هى التى سميت فيما بعد بلفظ " الدو " ، وقد مر بها الرحالة اللوزانى بيركهارت عند ما زار السودان حوالي سنة ١٨١٤ م وقد شاهد بقايا آثارها " .

وتذكر بعض المصادر أنه ولد في مدينة أيلة من أعمال فلسطين . ولكن الذي أكثر عليه أكثر هذه المصادر أنه ولد في بلاد النوبة ثم رحل منها على أيام النبي داود عليه السلام حيث التقى به في أيل ، ولازمه لمدة عام وهو يراه يصوغ الحديد حلقات دون أن يسأله عما ينوي أن يفعل بتلك الحلقات . وقد دل هذا على صبره ، وضبطه للنفس ، وقدرته على كبح جماح حب الاستطلاع . فلما فرغ سيدنا داوود من صنع الحلقات ، وشبكها في الدرع الذي صنعه قال لقمان الحكيم " كفتني عيني مؤونة لساني . الصمت حكمة وقليل فاعله " .

وقد ذكر البيهقي في كتابه " مفاخر النوبة " أن لقمان الحكيم كان قد سكن أيلة مع اليهود ، ثم رحل إلى بيت المقدس ، وأنه رأى بعض أنبياء بني إسرائيل ، وجالس داود عليه السلام ، ولازمه وهو يصنع الحلق لصنع الدروع .

والمعروف تاريخيا أنه كانت هناك علاقات قديمة بين ممالك النوبة في عهد بعانخى وطهراقا وهما الملكان النوبيان اللذان حكما السودان ومصر وفلسطين في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وكان طهراقا الملك النوبي

والفرعون المصري قد أخذ على عاتقه مساعدة اليهود في فلسطين على نيل استقلالهم والدفاع عنهم أمام فيالق الأشوريين .

ولقمان الحكيم شخصية فريدة أظهر القرآن الكريم فضل حكمتها التى عرف بها ، كما أنه كان قدوة يحتذى بها اليهود في فلسطين ، وكان من الأخيار ومضرب الأمثال للمسلمين .

وكما ظهرت فضائل لقمان الحكيم ، فقد كان هناك غيره من أبناء السودان سواء من أرض النوبة أو ما وراءها . ومن بين تلك الشخصيات الفذة التى ظهرت في الإسلام ذلك الصحابى الجليل بلال بن حمامة خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤذنه[١٥] ومما لا ريب فيه أن سيرة بلال كانت وما زالت من أنصع السير الإسلامية .

كذلك كان هناك ذو النون المصري ، وهو من أبناء النوبة أيضا وسمى بالمصري لأنه كان يسكن مصر ، أما أصله فهو نوبي واسمه أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم . وقال ابن فضل الله العمري إن أباه كان عبدا نوبيا . وأورد له صاحب كتاب الأبرار بعض الأبيات التى سمعت منه وهي :

أموت وما ماتت إليك صبابتى ولا قُضيت من صدق حبك أو طارى
وأنت مُنَى سُؤْلى وغاية مقصدى وموضع (شكوايا) ومكنون أسراري

وكان يذهب الناس إليه يتلقون منه العلم في مصر على كثرة ما كان فيها من علماء .

ويعتبر يزيد بن أبي حبيب النوبي الأصل الذى كان موطنه دنقلة من أشهر فقهاء المسلمين وأعلمهم بعد الصحابة . وكان يزيد يخبر الناس بأنه من

---

[١٥] ابن الوردى – انظر مسعد ص ٣٧٢ .

سبي دنقلة أصبح عبدا في مصر . وهناك وجه نفسه للعلم والفقة وأخذهما عن بعض الصحابة الذين كانوا يقيمون في مصر . ويقول الكندي عن يزيد أبن أبي حبيب " إنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقة ".[١٦] وكان الناس قبل ذلك يتحدثون في مواضيع أخرى مثل الفتن والترغيب .

وعرف عن يزيد أنه كان حجة في الفقه الإسلامي ، وهذا ما حدا بالخليفة عمر بن عبد العزيز رضي ا لله عنه بأن جعله أحد ثلاثة أوكل الفتيا إليهم بمصر . وكان رجلان من هؤلاء الثلاثة من الموالى والثالث من العرب . فأما العربي فهو جعفر بن ربيعة . وأما المولیان فهما يزيد بن أبى حبيب وعبد ا لله بن أبي جعفر . فلما أنكر العرب ذلك ، قال عمر بن عبد العزيز " ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها ، وأنتم لا تسمون . " وكان يزيد على ما اشتهر عنه عالما بالفتن والحروب وخاصة ما يتعلق بفتح مصر وشئونها وولاتها . وكان كذلك ملما بأحداث ووقائع المسلمين والنوبة والمعاهدة التى عرفت بالبقط وأبرمت بين المسلمين والنوبة ، كما كان حجة في شروطها ؛ واختلف فيها مع الإمام مالك وأعلن رأيه في ذلك .

ويزيد كان من المصادر الهامة التى لجأ إلي أقوالها ورواياتها الكندي حين ألف كتابه " ولاة مصر وقضاتها " فقد كان ما روى عن يزيد من أهم ما اعتمد عليه الكندي .

وكانت كل من أسوان وقوص من أهم مراكز العلم في مصر ، وكان يؤمها العرب وغير العرب من نوبة وبجة وسودان لتلقى العلم على كبار علمائهما . كما كانت كل منهما محجة لحجاج بيت ا لله الحرام القادمين من

---

[١٦] احمد أمين : فجر الإسلام .

المغرب طوال القرون . ونضيف إلي ذلك أيضا أن هاتين المدينتين كانتا من أهم المراكز التجارية في العصور الوسطى وخلال العهد الإسلامي الأول حتى اكتشاف الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح بجنوب إفريقيا إلي الهند سنة ١٤٩٦ م .

ولم ينقطع تقاطر النوبيين والسود عن مصر طوال الحقبة بين سنة ٢١ هـ إلي سقوط دنقلة في يد العرب سنة ٣٧٥هـ ١٢٧٦م إذ كان ولاة مصر يطالبون النوبة بأن يرسلوا البقط سنويا ، وقد كان يشتمل على إرسال أربعمائة رأس من أواسط عبيدهم . كذلك نجد التشجيع الذى كان يمارسه خلفاء الفاطميين بجلب الرقيق الأسود من الأراضي السودانية لإدخالهم في الجندية . وبالإضافة إلي ذلك فإن العمري كان من بين الذين ملأوا صعيد مصر وأرض العلاقي بالرقيق الذين أسرهم في معاركه ضد النوبة قبيل سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م . وقبل أن يلتقط النوبيون والسود أنفاسهم في الأراضي السودانية أخذ الأمير أحمد بن طولون في جلب أعداد كبيرة من السودان لتعيينهم حراسا له ولدولته ، وأحضر أخو صلاح الدين الأمير شمس الدولة توران شاه في سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م عددا غير قليل من النوبة ، ولما استولي المماليك بعد الأيوبيين على حكم الديار المصرية كان جلب هؤلاء الرقيق من هناك قد زاد حتى أصبح الذين يعيشون منهم في مصر أعداد ليست بالقليلة . وهكذا فإننا نجد أن هذه الفئات من الشعب السوداني كانت ذات أثر على الحياة وعلى المصريين في مصر ، كما كان المصريون وولاة مصر قد أثروا على هؤلاء خاصة أبناء أمراء النوبة الذين كانوا يربون في قصور السلاطين وتحت رعايتهم ليأخذوا بشيء من المدنية والتقدم . وكانت كل هذه الصلات القوية بين سكان شمال الوادي وجنوبه قد جعلت

الفرصة سانحة ليعيش الجانبان وقد أخذ كل منهما بطرف من مدتية الآخر وثقافته . وكان هناك اتجاه من جانب السودانيين بكافة قطاعاتهم أن يهاجموا صعيد مصر من وقت لآخر كلما ازداد القحط في بلادهم . وكان ولاة مصر في جميع العصور تتملكهم اليقظة خوفا من المباغتات السودانية ، وكان صدهم لها دائما عنيفا إلا أنه لم يكن نهائيا في أي يوم من الأيام . ولهذا فإن اتجاه أبناء جنوب الوادي لمصر ليس بالأمر الذي يمكن أن يوقف ، كما أن مصر ستجد نفسها دائما كما كانت عليه الحال في تاريخ وادي النيل من منبعه إلى مصبه.

ومن الشخصيات السودانية التى شغلت التاريخ والأدب والسياسة الاستاذ أبو المسك كافور الإخشيدى . وكانت كنيته الرسمية هي أبو المسك كما كان لقبه الرسمي هو الأستاذ . وقد كان كافور مادة خصبة للمديح الذى كاله إليه المتنبى في قصائده بعد أن خاب رأيه في سيف الدولة و لم يحتمل المؤامرات التى كانت تحاك ضده ، فوجد في كافور خير خلف لخير سلف ، وأجاد المتنبي في وصف سجايا كافور ومقدرته السياسية والإداريه ، كما رسمه وأوضح معالم خلقته فيما سطره من شعر في هذا الأمر وكأنه فنان يحسن الرسم والتلوين والإبداع ؛ ثم عند ما خاب رجاؤه فيه بذل جهدا كبيرا في إظهار مساوئه . ولكن مهما قال المتنبى في ذم كافور وبخله وجسده فإن كافور الإخشيدي الذي جلب من الديار السودانية وكان خصيا استطاع أن يدير دفة الملك بكل حذق ومهارة في كل من مصر والشام والنوبة على حد قول المتنبى والتاريخ:

يدبر الملك من مصر إلي عدن ... إلي العراق فأرض الروم فالنوب

إذا أنتها الرياح النكب من بلد ... فلا تهبّ بها إلا بترتيب

وهكذا كان الأستاذ كافور يدبر ممالك واسعة في عصره لمدة إحدى وعشرين سنة . وكانت تحت إدارته مصر والشام بعد أن دارى الناس ووعدهم إلي أن سكنت الدهماء بعد أن اضطرب الناس . ثم سار إلي مصر فدخلها ، " وقد انعقد الأمر بعد الإخشيد لابنه أبى القاسم أو نوجور " .

وفي خلال فترة الاضطراب هذه انتهز سيف الدولة على بن حمدان أمير حلب الفرصة فهجم على دمشق ، واستولى عليها من أيدي الإخشيديين ، كما أنه توجه إلي الرملة لضمها إلي أملاكه . فشمر كافور عن ساعده ، وأعد جنوده ، وأخذ يثير الحماس في النفوس وذلك بقرع النقارات[١٧] على باب معسكره عند كل صلاة حتى إذا اكتملت عدته خرج لملاقاة سيف الدولة الحمداني ، ونجح في طرده من دمشق وغيرها ، وثبت أقدام حكمه في الشام ، ثم عاد إلي مصر ظافرا ، ولم ينس أن يجود على قواده لمؤازرتهم له ، فخلع عليهم ، وأغدق عليهم العطاء حتى أسرهم بجوده وكرمه . وعند ما استتبت الأمور أعد لنفسه مجلسا للمظالم ، وكان يحضره معه في مصر كبار قواده والقضاة والوزراء والأعيان ووجوه البلد ، وكان يهب عن سعة ، ويمنع ويعين ويعزل وهو المتصرف في شئون البلاد مما أثار عليه حفيظة الأمير أبي القاسم الإخشيد وهو يراه في مجلسه ذاك يفعل ما يشاء . وحدثت بين كافور والأمير أبي القاسم وحشة ، ونقم عليه السلطان والجاه والقوة التي كانت في يده . ولم يكن الأمير أبو القاسم راضيا عن مكانته الضئيلة . ولما وصلت الأمور إلى هذا الحد من سوء التفاهم أخذ كل منهما يستقطب القواد والجنود إليه ، وأخذت هذه الفئة تنقسم بين الجانبين المتصارعين . ولكن شاء الله أن يموت الأمير أبو القاسم أو نورجور ويخلو

---

[١٧] النقارة عربية صحيحة تعنى الطبل الكبير .

الجو من تلك المنافسة . فعين الأستاذ كافور الأمير أبا الحسن علي بن الإخشيد أخا الأمير أونوجور المتوفى .غير أن الأستاذ احتفظ لنفسه بكافة السلطات وقرر لعلي راتبا سنويا يبلغ أربعمائة الف دينار لمؤونته . ولكن سرعان مادبّ الخلاف بينهما ، فلجأ كافور إلي تضييق الخناق عليه ، ومنعه من الاتصال بالناس أو اتصال الناس به . وما لبث أن اعتل الأمير علي بعلة أخيه ، ثم فارق الحياة بعد أن طال مرضه ، وتوفي في محرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة . وأصبح بعدها كافور الحاكم على مصر والشام بأمر من الخليفة المطيع لله .

ولكن في أخريات أيام كافور كان النشاط الفاطمي والدعاية لتلك الأسرة قد أزداد وهي تعبر الحدود المصرية الغربية للدخول إلي مصر وإحداث تغيير في الحكم لصالح الفاطميين . وكان كافور يبذل الكثير من الجهد في سبيل منع السيطرة الفاطمية على مصر ، وهذا جعله يشجع على جلب الرقيق من السودان لكي يعلموا جنودا في جيش الديار المصرية والدفاع عنها أمام المعتدين . كذلك فقد انحسر النيل ، ولم يفض إلا قليلا ، وكان نقصه قد أثر على الحالة الزراعية في مصر فارتفعت الأسعار ثم اشتد الغلاء ، وأصابت الناس مجاعة أدت إلي وفاة العديد من الناس حتى عجزوا عن تكفينهم[١٨] ومواراتهم . وبينما الأمور تسير على هذا النحو في مصر كانت الأمور الخارجية تسير على نحو أسوأ ، فقد كثر نشاط الفاطميين على الحدود حيث كانت جيوشهم بالمرصاد ، وأرجف الناس بأن القرامطة قد وصلوا إلي أطراف دمشق ، وأنهم يهددون الشام ، وتمرد غلمان الأستاذ الأتراك وعددهم ألف وسبعون ورفضوا الخروج لمواجهة القرامطة في الشام

---

[١٨] المقريزى – ج ٢ ص . ٢٧ – بيروت .

، وعاجلت المنية في هذا الوقت أبا المسك وذلك لعشر بقين من جمادى الأول سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧م وعندها قدمت جيوش القائد جوهر الذى أرسله المعز لدين ا لله الفاطمى ، وأخذت مصر وأصبحت البلاد دارا للخلافة الفاطمية .

ولما مات كافور نعاه الشعراء بما هو أهل له ، وقد قال أحدهم فيه حيث كتبت هذه الأبيات على قبره :

ما بال قبرك ياكافور منفردا بصائح الموت بعد العسكر اللجب[١٩]

يدوس قبرك من أدنى الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك في الكثب[٢٠]

وكانت شجاعة كافور تذكر بعض الشعراء بشجاعة عنترة حتى إن أحدهم ألمح إلى ذلك في إحدى قصائده حين يقول :

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلا من يقول لها اقدمي

شديد ثبات الطرف والنقع واصل إلى لهوات الفارس المتلثم

إذ أن هذا يذكرنا بقول عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأسقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى

وإننى على يقين من أن أبا المسك حين سمع هذا المدح ، وهذا التلميح بأنه عنترة زمانه اهتز طربا ، وحمل سيفه وأخذ يعرض به أمام الجمع ممن حضر مجلسه ذاك الذى أعده لمثل هذه الاحتفالات وقد ازدحم المجلس بعلية القوم . لقد كان كافور ذكيا فذا عالما بلغة النوبة ، عارفا بأسرار اللغة العربية ، وكان مثقفا استطاع رغم عبوديته أن يكسب احترام كل أولئك العلماء والفقهاء والقواد الذين كانوا بمصر . وكان كافور يعرف كيف

---

[١٩] اللجب : الكثيف والكثير .

[٢٠] الكثب : جمع كثيب وهو كوم الرمل .

يكسب قلوب من كانوا حوله وذلك بإغداق العطاء عليهم ، وتقديرهم حق التقدير وذلك بأن يكونوا جزءا مكملا لمجلسه الذى كان قبلة أهل مصر .

ومات كافور بعد أن ترك في التاريخ العربي الإسلامي بصمات لها أثرها وقيمتها . وأما ما قاله المتنبي في هجائه فلم يكن سوى غضبة متنبية لأنه لم ينل ولاية أو إمارة في دولة كافور الشاسعة . ولعل المتنبي كان يطمح في أن يتولى أمر دمشق ليواجه فيها صديقه سيف الدولة الحمداني الذي كان طامعا فيها . ولكن لم يشأ كافور أن يهبها له ولربما خشي من أن يتحالف الصديقان القديمان عليه فيقتسمان ملكه .